

نقص تشكيلا لنا الاجتماعية

هل نحن أمة ؟ !

بقلم الأستاذ سيد قطب

لست متشائما ، ولا سعي الظن ، حين أسأل مثل هذا السؤال "هل نحن أمة ؟ !".
والواقع أن أجراً الأجراء يتردد طويلا قبل الإجابة على هذا السؤال فنحن — بالقياس
إلى مظاهر النشاط — حكومة ! لأن الحكومة هي التي تقوم بكل شيء ، بينما نحتاج إلى
قسط كبير من التسامح لنقول : إننا أمة تتحقق فيها مظاهر الاجتماع الأُمِّي وشرائطه .
ذلك أن أظهر الفوارق بين حياة الأدغال وحياة المجتمع ، أن مطالب الفرد هناك هي
الدستور المتبع ، ومطالب الجماعة هنا هي القانون ، وأن الجماعة مكلفة أن تعطف على
المختلفين فيها وتحاول إصلاحهم .

فمن يستطيع منا أن يقول : "نحن أمة" حين ينظر إلى جهودنا في هذا السبيل ، وحين
يفغل من الحساب مجهود الحكومة وهو كل شيء ؟ والمقياس الصحيح الذي يمكن تطبيقه
هو مقياس الأرقام ، فلنأمل لحظة في مجتمعا المصري ، لنرى كم مريضا فقيرا في مصر ، وكم
مريرا في المستشفيات العامة ، وكم طبيبا يخصصون لعلاج هؤلاء المرضى ؟

وكم يتايا وعاجزا ومشردا ، وكم مكانا في الملاجئ معدا لإيوائهم ؟
وكم أرملة وأيما وعائسا فقيرة ، وكم مشغلا يتسع لمن أو مبرة تعاونين وتجد لمن الزوج
الصالح أو العمل النافع الذي يقيمن شر البغاء والمرض والانحلال ؟

وكم حدثا تعج به الطريق ، وكم حدثا لفظته الإصلاحية بعد انقضاء مدته بها ، وكم
هيئة تعاون هؤلاء الصبية قبل الإصلاحية أو بعدها وتلحقهم بدوائر الأعمال ؟

وكم نتجنا سدت في وجهه طرق الكسب الحلال بعد انقضاء مدة عقوبته ، لأنه قد
يكون أخطأ مرة واحدة في حياته ، وكم جماعة تتولى إصلاحه وتطهيره وضمائنه لدى المجتمع
ليستطيع العودة إلى حياة الشرف والاستقامة والزراعة ؟

وكم متعتلا لا يجد قوت يومه ، وكم نقابة أو جمعية تتولاها مدة تعطله ، وتجتهد في إيجاد
عمل يمونه ؟ .

بل لننظر : كم طالبا يرغب في العلم ثم لا يجد له مكانا في المرحلة التعليمية التالية ، أولا
يستطيع نفقات الدراسة مع نبوغه وتفوقه ؟

والنسبة بين المطلوب والموجود في هذه الشؤون كلها وفي مثيلاتها هي التي تحدد مبلغ
رقينا الاجتماعي بل الإنساني ، وهي التي تعين مقدار ما في طبيعة هذه الأمة من الحيوية
والاستعداد للحياة ، وهي التي تملئ علينا جواب هذا السؤال " هل نحن أمة ! " .

فهل هذه النسبة ترفع رؤوسنا وتقوى آمالنا ، أم هي على العكس تفتح الأعين على الهول
المفرغ الذي يكتشفنا ولا نشعر به لفرط استخفافنا بالأمر ؟

إن مصر هي البلد العجيب الذي يرى الحدث الصغير مشردا في الطريق ، فلا يحرك
ما كنا ، حتى إذا اشتد ساعده وشب مستهترا حائقا على هذا المجتمع الذي لم يكرمه أو يحفل
به مرة واحدة ، فراح يجازيه على إهماله بالجريمة ، ارتفعت الأصوات من كل جانب
بالإنحاء على الجريمة ، ولوم الحكومة ورجال الشرطة على الإهمال .

وإن مصر هي البلد العجيب الذي يرى المشردة البائسة فلا يصون وجهها ، ولا محتفل
بها ، أو يعطف عليها ، حتى إذا زلت وانحدرت إلى مهاوى الرذيلة ارتفعت الصيحات ،
كل جانب . " الرذيلة : ألقوا البغاء . الحكومة لا تحافظ على التقاليد ! " .

وإن مصر هي التي ترى المرضى الفقراء تفتك بهم الأمراض فلا تمتد يدها لانتشالهم من
برائن الأوبئة والأمراض المتوطنة ، حتى إذا لم تجد الحكومة من الأجسام القوية ما يحقق
الرغبة في تقوية الجيش ، ولم تجد الجامعة الصحة التي تضمن الجهد العلمي والتفوق الذهني
ارتفعت الأصوات من كل جانب : " الحكومة مقصرة في تقوية الجيش . الجامعة لا تخرج
النواحي الأكفاء ! " .



بين يدي وأنا أكتب هذه الكلمة تقاريرات مصلحة السجون في السنوات الخمس الأخيرة
وفي كل منها تدوى صيحة المدير العام منذرة بخطور إهمال الأحداث ، وبنداء الهيئات
والجمعيات لمعاونة المصلحة في انتشالهم من السقوط وفي رعايتهم بعد مفارقة الإصلاحات .

وفي التقرير الأخير يقول :

" بجهودنا إنما نتحصر في بضع مئات من الأحداث داخل الإصلاحيات من بين آلاف
يفتقرون إلى ذلك ومازالوا هنالك في الأحياء ، مبعثرين في المدن وغيرها ، ولا سبيل إلى
إيصال ومائل الإصلاح إليهم ، أو لا سبيل لهم إلى الوصول لمناشآت الأحداث من
صالحات أو ما إلى الإصلاحات من دور التنشئة .

” فالجهود التي تبذلها الجماعات المنظمة داخل مواطن الفقر والبطالة وفساد المييشة
وانحلال العائلة واختلال الصحة ؛ أجدى لمصلحة الأحداث المتشردين أنفسهم وأبعد مدى
لمصلحة المجتمع في سبيل مقاومة الأسباب الأساسية لاستشراء الأحداث والفضاء على
الاستشراء في البلاد .

” فالحير كل الحير في أن يعمل على منع وقوع الأذى لا أن يعالج الضرر بعد وقوعه “ .

ويعرض التقرير لمانحية أخرى أشد خطراً على الأخلاق من المتشردين الأحداث ، تلك
هي مشكلة المتشردين الأحداث ، اللواتي تخرجهن الإصلاحية في سن الثامنة عشرة أى سن
الفتنة والنضوج ، وفي هذا يقول :

” ليس التشرد وحده علة نكبة الفتيات في أعز ما يحتفظن به ، أو ما يجب على أوليائهن
أن يسهروا على حمايتهن منه ، فقد عثر بين الأهل وبين الأولياء على من وقعن فريسة الشره
الجنسى ، حيث كان يؤتمن في كنفهم عليهن .

” ومن المؤلم أن تقع أمثال هذه المآسى على القاصرات بين الإحدى عشرة
والخامسة عشرة .

” وما من شك والحالة هذه في المصير الواحد التعس لمن ينكبن — وهن مازلن في ميعة
العمر — لو لم يهيا لهن سبب جديد يكسبهن بالتعليم وبالأخلاق مناعة جديدة .

” وإصلاحية البنات ، دعامة من دعومات الصيانة في هذا الصدد ؛ وإليها يرجع فضل
كبير وكثير في إنقاذ فتيات وطفلات كن على شفا الهاوية ولم يقعد بنا العبء عند حد
قبول البنت في الإصلاحية ، حتى إذا أوجبت علينا نهاية مدة الحكم ، أو بلوغ سن الثامنة
عشرة من العمر إخراجها أخليتنا سبيلها .

” بل ذهبنا إلى حد التحري بمعرفة جهات الإدارة قبيل ذلك الموعد عن سمعة وأهلية
الأهل ، الذين تنوى العيش معهم ، ولكن تكشفت لنا — مع الأسف — حقائق خالفت ذلك “ .

هذه هي الهاوية التي تطلعن عليها تقارير مصلحة السجون ؛ فأين ” جيش الخلاص “
يتولى هؤلاء الغلمان قبل الإصلاحية وبعدها . ويتولى خريجي السجون والليانات
وإصلاحيات الرجال ومدمني المخدرات ويردمهم إلى الحياة الشريفة المستقيمة ؟

وأين الجمعيات النسوية تتولى هؤلاء المتشردين بالعطف والرعاية والصون ، وتعدّ لهن
المستقبل الشريف ، وتحمين من خطر السقوط ؟

إن كل صيحات المتظاهرين بالنية على الأمن العام وعلى الأخلاق لتبدو خفيفة تافهة
مالم يصاحبها عمل جدى منظم لتلافي هذه الحال . ولست أرى معنى لارتفاع صوت واحد
بالبكاء على الخلق والتقاليد ، أو المطالبة بإلغاء البغاء قبل أن تنظم الجهود للقضاء على أسباب
التدهور الى هاوية البغاء .

وإن انتاذ فتاة واحدة من المعرضات للسقوط لأنفع للأمة من ألف خطبة في مؤتمر
وألف مذكرة للطالبة بحق المرأة ، لأن أول حقوقها صيانتها عن الرق الأبيض الذى
تباع فيه الأعراض والأجسام .

ولست أرى كذلك معنى لتشديد جريمة العود على المجرمين العائدين ، قبل أن توجد
الهيئات التى تتولى كل مجرم بعد مغادرته السجن وتنتهى له طريق الحياة الشريفة . ولا
لتطبيق قوانين التسول قبل أن توجد الملاجئ والمستعمرات الزراعية والصناعية الكافية
لكل لاجئ فى جميع أنحاء البلاد .

إننا نعاقب هؤلاء ونشدّد فى عقوبة أولئك رعاية لحق المجتمع ، فإذا قصر المجتمع
فى حماية نفسه ، فيجب أن يلقى بعض عواقب هذا التقصير .

سيد قطب

من حكم شوقى

- البشفية قيصرية ، لما جبروت الملك وسرفه ، ولبس لها جلاله ولا شرفه .
- إذا رأيت ساعيا مجتهدا تطله الأسباب وتطاروله الغايات فاعلم أن حفظه قاعد .
- السجون اذا امتلأت انفجرت .
- من ظن أنه يُرضى ابدا ، يوشك ألا يُرضى أحدا .
- فراش المتعب وطىء ، وطعام الجائع هنىء .
- من استقل بنفسه استوحش ، ومن استقل برأيه ضل .
- الشباب مُلاوة كُلُّها حلاوة .